تَربيةُ الأولادِ في الإسلامِ

إنّ الأطفالَ غراسُ الحياةِ ، وقطوفُ الأملِ ، وقُرّةُ عينِ الإنسانِ ، وزهورُ الأمّةِ المتفتحةُ ، والبراعمُ الإنسانيةُ المتألقةُ ، عليهم المعوّلُ في الحفاظِ على مكاسبِ الأمةِ ، واستعادةِ ماضيها المجيدِ ، وخوضِ معاركِها الضاريةِ والمصيريةِ ضدَّ أعدائِها .

إنّ للطفولةِ في الإسلام عالمَها الخاصَّ ، المُفْعَمَ بالعنايةِ والاهتمامِ ، وحديثُ القرآنِ عن الطفولةِ يفيضُ بالمودّة ، فإنّ اللهَ تعالى يُقسِم بالطفولة :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ ﴾ [البلد : ١-٣] .

والأطفالُ هم البُشرى ، قال تعالى مبشِّراً نبيَّه زكريا :

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

[مريم : ٧]

وهم قُرَّةُ العَيْنِ ، لذلك أرشدَ اللهُ عبادَ الرحمنِ إلى هذا الدعاء ، فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وهم زينةُ الحياةِ الدنيا ، قال تعالى :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

وهم المودَّةُ والرحمةُ ، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، قال بعضُ علماءِ التفسيرِ : المودَّة والرَّحمة هما الطفل الذي يقوِّي العلاقة بين الزوجين ، ويجعلها أكثر أمناً واستقراراً .

وفي السنّة الصحيحة يرسم لنا النبي ﷺ عالَم الطفولة ، وكأنه عالَم قريب من عالَم الجنة ، فعَنْ أَبِي حَسَّانَ قَالَ : تُوُفِّيَ لي ابْنَانِ ، فَقُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ هل سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثاً تُحَدِّثُنَاهُ تُطَيِّبُ بِنَفْسِنَا عَنْ مَوْتَانَا ؟ قَالَ : نَعَمْ : « صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ[1] الْجَنَّةِ ، يَلْقَى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ أَوْ أَبَوَيْهِ فَيَأْخُذُ بِنَاحِيَةِ ثَوْبِهِ أَوْ يَدِهِ ، كَمَا آخُذُ بِصَنِفَةِ[2] ثَوْبِكَ هَذَا ، فَلاَ يُفَارِقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ »[3] ، والدعاميص : هي نوع من الفراشات الجميلة .

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٢٠) :[الدعاميص جمع دعموص وهي دُوَيْبّة تكون في مستنقع الماء ، والدعموص أيضا الدَّخَّال في الأمور ، أي إنهم سيَّاحون في الجنة ، دخَّالون في منزلها ، لا يُمْنَعون مِن موضع ، كما أنّ الصبيان في الدنيا لا يمنعون من الدخول إلى الحرم ، ولا يحتجب منهم أحد] ، وانظر (لسان العرب مادة دعمص) .

(٢) [صنفة الثوب طرفُه مما يلي طرته] ، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٥٦) ، [صنفة الإزار طرته التي عليها الهُدْبُ] ، (لسان العرب مادة صنف) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦٢٨) .

ورعاية الأطفال واجبة ، وحبهم قربى إلى الله ، أليس الرسول الكريم ﷺ هو القائل : « لَوْلاَ شُيُوخٌ رُكَّعٌ ، وَشَبَابٌ خُشَّعٌ ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ ، لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا »(١) .

لقد كان حُبُّ الرسول ﷺ للطفولةِ يملأ قلبَه الشريفَ ، فَعَنْ بُرَيْدَةَ يَقُولُ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ ، يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْمِنْبَرِ ، فَحَمَلَهُمَا ، وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « صَدَقَ اللهُ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ ، وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا »(٢) .

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنِّي لأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ »(٣) .

أوَّلُ حقوقِ الطفلِ على أبيه أنْ يُحسِنَ اختيارَ أمِّه ، لأنّ الإسلامَ لم يكن ليهتمَّ بالطفلِ بدءاً مِن مولدِه فحسب ، بل إنه ليرعاه فكرةً ، ويحضنه غيباً ، ويخطِّطُ مستقبلَه ، وهو مايَزَالُ أُمْنيّةً هائمةً في ضميرِ الغيبِ ، فبمجرَّد تفكيرِ الأبِ في الزواج ، وتكوينِ الأسرة ، يحدِّد الإسلامُ له معالمَ الطريق .

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي (١١/ ٢٨٧) ، وسنن البيهقي (٣/ ٣٤٥) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١٣٤) ، عن أبي هريرة .

(٢) حديث مسندٌ صحيحٌ أخرجه الترمذي (٣٧٧٤) وأحمد (٢٣٠٤٤) وغيرهما .

(٣) رواه البخاري (٦٧٥) .

والأسرةُ في الإسلام لها نظامٌ بديعٌ غاية في الحسنِ والنقاء ، ولها خطورُتها ومكانتُها ، ولهذا كان لابدّ للإسلامِ أنْ يصحِّح أوَّلَ لَبِنَةٍ من لبناتها ، والزواج مرحلةٌ أوَّلِيَّةٌ في بناءِ الأسرة ، وعنايةُ الإسلامِ بهذه اللبنةِ تعني سلامةَ ما يترتبُ عليها من حياةٍ مستقرةٍ هانئةٍ سعيدةٍ لكلِّ أفرادها .

فالإسلامُ يأمرُ الرجلَ عند الزواج أن يختارَ الزوجةَ ذاتَ دِينٍ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ ؛ لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ »[1] ، فلا ينبغي حينئذٍ أنْ يكونَ جمالُ المرأة ، أو حَسَبُها ، أو مالُها هو كلَّ شيء ، بل لابد أنْ ينضم إلى كل ذلك الدينُ ، وأن تكون من بيتٍ كريم ؛ لأنّ أولادَها سيرِثون من أخلاقِها وصفاتِها وسلوكِها الشيءَ الكثيرَ .

وبالمقابلِ أرشدَ النبيُّ ﷺ أولياءَ المخطوبةِ إلى أنْ يبحثوا عن الخاطِبِ الذي يرضَوْن دِينَه وخُلقَه ؛ ليرعَى الأسرةَ رعايةً كاملةً ، ويؤدِّي حقوقَ الزوجةِ والأولادِ ، قال عليه الصلاة والسلام : « إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ ، قالوا : يا رسول الله! ، وإن كان فيه ؟ قال : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكِحوهُ ، ثلاث مرات » »[2] .

وانطلاقاً مِن هذا المبدإِ أجابَ الخليفةُ عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن سؤالِ لأحدِ الأبناء حين سأله : « مَا حَقُّ الوَلَدِ عَلَى أَبِيهِ ؟ قَالَ :

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٢) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(٢) انفرد به الترمذي (١٠٨٥) عن أبي حاتم المزني وهو حديث حسن .

أَنْ يُحْسِنَ انْتِقَاءَ أُمِّهِ ، وَأَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ ، وَأَنْ يُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ . . »[١] .

ومِن أجْلِ ذلك وجَّهَ الإسلامُ عنايتَه إلى تربيةِ الأبناءِ حتّى يَسعدَ بهم المجتمعُ ، ويسعَدوا هم به ، والإسلامُ وهو ينظِّمُ حياةَ الفردِ والأسرةِ والمجتمعِ لا ينسى أنَّ هذه الأمورَ كلَّها أغصانٌ متشابكةٌ ، فأيُّ تأثيرٍ في أحدها فلابدّ أنْ يؤثِّر في الآخر ، فأخذتْ تعاليمُه السمحةُ تنسِّقُ الخطواتِ ، وتوضِّح المناهجَ ؛ لينشأَ مِن مجموعِها تقدمٌ متكاملٌ أساسُه الإيمانُ والرحمةُ ، والتعاطفُ والمحبةُ ، فالإسلامُ بهذا يسبِقُ كلَّ محاولةٍ لتقويمِ الفردِ والأسرةِ والمجتمعِ ، بما أنّه يزاوج بين خطواتِها في ثباتٍ واتِّزانٍ ، على أساسٍ مِن عقيدةٍ وإيمانٍ .

ويبدأُ الإسلامُ بإعدادِ الفردِ ، لأنّه الخليةُ الأولى التي تُنسَج منها الأسرةُ والمجتمعُ والأمَّةُ ، وهو الوحدةُ الأساسيةُ التي تؤلِّف العنصرَ الأولَ في التكوين العام ، والفردُ ما هو إلا طفلٌ في بدايتِه ، تُنَميّهِ فطرتُه ، ومكارمُ الأخلاقِ التي يُربَّى عليها في بيئته ، والقيمُ والمفهومات الإنسانيَّةُ والحضاريةُ التي يتلقَّاها من مجتمعه ، فإذا ما تمَّ تكوينُه في الحياةِ على النَّسَقِ القويمِ ، وعلى الصراطِ المستقيمِ ، والنهجِ الحكيمِ ، كانت الأسرةُ وهي المجتمعُ الصغيرُ تامَّةَ التكوينِ ، متماسكةَ البنيانِ ، وكان المجتمعُ بعد ذلك متقدماً نحوَ أهدافِه ، وكانت الأمةُ قويةَ الدعائمِ ، ثابتةَ الأركانِ .

الوَالِدَانِ والمعلِّمُونَ لَهُمَا أكبرُ الأثَرِ في بناءِ نفوس الأولادِ ، ويتأثّر

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٩٥) ، وأخرج البزار نحوه ، انظرْ مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٤٧) .

الطفلُ أولَ ما يتأثّر بالوالدَيْنِ اللذين يتَّخذُهُما مثلاً أعلى في سلوكِه وحياتِه ، ولذا وجَبَ على الوالدين ألاَّ يَظهرَا أمامَ أطفالِهما إلا بالمظهَرِ الحَسَنِ ، والخُلُقِ المستقيمِ ، وأنْ يضرِبَا أمامَهم أكرمَ الأمثلةِ في الأقوالِ والأفعالِ .

وقد وجَّه الإسلامُ إلى الوالدينِ إرشاداتِه الساميةَ ؛ إذ أمَرَهما بالعنايةِ بهم العنايةَ الكاملةَ ، وكانَ النبيُّ ﷺ أرحمَ الناسِ بالصبيانِ ، وقد وردَ في السُّنَّةِ الشيءُ الكثيرُ ممَّا يحضُّ على العنايةِ بالأطفالِ ، وحُسنِ معاشرتِهم ومعاملتِهم ، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : « قَدِمَ نَاسٌ مِنْ الأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا : أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ ، فَقَالُوا : لَكِنَّا وَاللهِ! مَا نُقَبِّلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ »[1] .

وعَنْ عَائِشَةَ : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ ، فَيُبَرِّكُ عَلَيْهِمْ ، وَيُحَنِّكُهُمْ »[2] .

وَحَدَّثَ أَنَسٌ : « أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ »[3] .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، قَالَ : وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ ، فَحَمَلَنِي

(١) البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٣١٧) .
(٢) مسلم (٢١٤٧) .
(٣) رواه مسلم (٢١٦٨) .

بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ ، قَالَ : فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلاَثَةً عَلَى دَابَّةٍ واحدة »[١] .

وعَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٢] .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ « أَنَّ امْرَأَةً وُجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَقْتُولَةً ، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ »[٣] .

قَالَ أَنَسٌ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقاً ، فَأَرْسَلَنِي يَوْماً لِحَاجَةٍ ، فَقُلْتُ : وَاللهِ! لاَ أَذْهَبُ ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ ، لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى الصِبْيَانِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي ، قَالَ : فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقَالَ : يَا أُنَيْسُ! أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ! ، قَالَ أَنَسٌ : وَاللهِ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ : هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ »[٤] ، فما أروع ما تضمَّنته هذه الأحاديث :

الحُبُّ ، وهو الرباطُ الروحِيُّ الذي يجمعُ كلَّ الناسِ على الخير ، ولاسيما أقاربُ الإنسانِ ، ومَنْ أولى مِنَ الولد ـ فِلْذَةِ الكَبِدِ ـ بِهَذا الحُبِّ ؟

والرحمةُ واحةٌ إنسانيةٌ عميقةٌ ، تجمع الناسَ في حضنها الحاني

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢٨) .
(٢) الترمذي (١٢٨٣) .
(٣) البخاري (٢٨٥١) ، ومسلم (١٧٤٤) .
(٤) البخاري (٥٦٩١) ، ومسلم (٢٣١٠) ، واللفظ له .

العطوفِ ، فتؤكِّد فيهم نوازعَ الخيرِ والإنسانيةِ .

والوفاءُ بالوعدِ مِن الوالدِ للولد ، دليلٌ على العواطفِ الصادقةِ النبيلةِ ، الوفاءُ بالوعدِ واجبٌ أخلاقي تحتِّمه الشرائعُ ، وتوجبُهُ فرائضُ الأديان ، إلا أنه للولد أوجبُ ما يكون ؛ لينظرَ إلى أبيه نظرةَ التقديرِ والإكبارِ .

وملازمةُ الوَالدَيْنِ لوَلَدِهِم تغرِسُ فيه نوازعَ كريمةً ، وتطبعُه بطابعٍ إنسانيٍّ نبيلٍ ، وتقوِّم طبعَه وخُلُقَه ، وتُنشِّئُهُ تَنْشئةً صالحةً ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ : « أَكْرِمُوا أَوْلاَدَكُمْ ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُم »(١) ، يريدُ ﷺ بذلك ألاَّ تتْركُوهم هَمَلاً دون راعٍ ، أو تتركوهم وتدَعُوهم لغيركم ، فذلك حَريٌّ أن يهزَّ معاييرَ الأخلاقِ في ذواتِهم ، ويبذر بذور الشرِّ في نفوسهم .

ولا يَقِلُّ دورُ المعلِّم الواعِي لخطورةِ رسالتِه ، المخلصِ في أداءِ عملِه عن دورِ الأبِ ، قال عتبة بن أبي سفيان يوصي مؤدِّبَ ولدِه : « ليكنْ أوّلَ إصلاحِك لولدي إصلاحُك لنفسك ، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينك ، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنتَ ، والقبيحُ ما استقبحتَ » .

وروى ابن خلدون أنّ هارونَ الرشيدِ قال لِمُعَلِّمِ وَلِدِهِ الأَمِينِ : « إنَّ أميرَ المؤمنين قد دَفَعَ إليكَ مُهْجَةَ نفْسِهِ ، وثَمرَةَ قلْبِهِ ، فَصَيَّر يَدَكَ عليه مبسوطةً ، وطاعتَه لك واجبةً ، فكنْ له حيثُ وَضَعَكَ أميرُ المؤمنين ، أَقْرِئْه القرآنَ ، وعرِّفْه الأخبارَ ، ورَوِّهِ الأشعارَ ، وعلِّمْهُ السُّنَنَ ، وبصِّرْهُ بمواقعِ الكلام ، وامْنَعْهُ مِنَ الضَّحِكِ إلاّ في أوقاته ، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعةٌ

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٧١) .

إلاّ وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيدُه إيّاها ، مِن غيرِ أنْ تحزنَه ، فتميتَ ذهنَه ، ولا تُمعِنْ في مسامحته فيستحليَ الفراغَ ، ويألَفَهُ ، وقوّمه ما استطعتَ بالحكمةِ والمُلاينةِ » .

وقد نبَّهَ علماءُ التربيةِ الإسلاميةِ كالغزالي وابنِ خلدونَ على أهميةِ تربيةِ الطفلِ في سنِّه الأولى ، لأنَّه في هذه الفترةِ تُغْرَسُ فيه الأخلاقُ ، وتُرَبَّى فيها العواطفُ والمفهومات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ[1] » ؟[2] .

كما نبَّه القرآنُ على أنّ الإسلام هو دين الفطرة ، قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم : ٣٠] .

إنّ الأدبَ مطلوبٌ في فترةِ الطفولةِ ؛ لينشأَ الطفلُ على مَحَامدِ الأفعالِ ، ومكارمِ الأخلاق ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم : ٦] ، قال

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢٥٠) : [والجدعاء المقطوعة الأذُن. . . يريد أنها تولد لا جدع فيها ، وإنما يجدعها أهلُها بعد ذلك] ، وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٢٠٩) : [جدعاء بالمد ، وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ، ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها] .

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) ، وغيرهما .

عليُّ بن أبي طالب في معنى قوله تعالى : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ « أيْ أدِّبوهم ، وعلِّموهم »[١] .

وقد ورد عن رسول الله أيضاً : « لأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ »[٢] .

إنَّنا حين نؤدِّب أولادَنا إنما نقدِّم للحياةِ عنصراً نظيفاً ، وللمجتمع لَبِنَةً صالحةً ، وهذا ما تهدِفُ إليه التربيةُ الإسلاميةُ ، والإسلامُ بدوره يَعِدُ الآباءَ سعادةً في الدنيا ، وهي قُرَّةُ العَيْنِ ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

ويَعِدُ الإسلامُ الآباءَ جنّةً فِي الآخرةِ ، فيها مَا لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلب بَشَرٍ ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾[الطور : ٢١] .

إن الإسلام قَرَنَ تربيةَ الأولادِ بهذين الوعدين الكبيرين في الدنيا والآخرة ؛ ليكونَ ذلك حافزاً للأبِ والأمِّ ، على أنْ يربيَا أولادهما ، وأنْ يُحْسِنَا تأديبَهما ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « أَكْرِمُوا أَوْلاَدَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ »[٣] ، ورحم اللهُ مَن قال : « لاعِبْ

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ١٦٥ـ١٦٦) ، وابن كثير (٤/ ٣٩٢) .
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٥١) ، وأحمد (٢٠٩٣٧) .
(٣) انفرد به ابن ماجة (٣٦٧١) .

ولدك سبعاً ، وأدِّبْه سبعاً ، وصاحِبْه سبعاً ، ثم اجعلْ حبله على غاربه »[١] .

عن عبد الله بن عمر قال : سأل النبيُّ ﷺ أصحابه : « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنَا بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : هِيَ النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ : فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ : لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا »[٢] .

حقُّ التعليمِ

ولأنّ الإسلامَ يرغِّب في العلم والتعليم ، فطلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم ، أيْ : على كلِّ شخصٍ مسلم ، ذكراً كان أو أنثى ، فهو ليس وَقفاً على جنسٍ دون جنسٍ ، ولا طائفةٍ دونَ أخرى ، إنَّه قَدْر مُشاعٌ ، ومصلحةٌ لكلِّ مَن يتنسّمُ نسماتِ الحياةِ ، الذكرُ والأنثى فيه سواءٌ ، والرَّجلُ والمرأةُ تجاهَهُ سيّان ، والمجتمعُ الذي ينشأ أفرادُه على وعْيٍ ومعرفةٍ ، وعلى هُدًى وبصيرةٍ ، وثقافةٍ وعلمٍ ، هو المجتمعُ الحقُّ الذي ينهضُ به أفرادُه ، وينهضُ هو بأفرادِه ، ومِن أجل ذلك كانتْ آدابُ الإسلامِ تهدفُ إلى العلمِ الذي يحقِّق الفائدةَ للفردِ ، والسعادةَ للجماعةِ ، والسلامَ للعالَمِ ، فعلِّموا

---

(١) [الغارب ما بين العنُق والسهام ، وهو ما يُلْقَى عليه مِن خطام البعير إذا أُرسِل ليرعى حيث شاء] ، (التعاريف (١/ ٥٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣١) ، ومسلم (٢٨١١) ، والترمذي (٢٨٦٧) ، وأحمد (٤٥٩٩) .

أولادكم ، فإنهم مخلوقون لزمانٍ غيرِ زمانِكم .

يبدو أنَّ مَن مَلَك ناصيةَ العلمِ مَلَك ناصيةَ العالَم ، وما يجري في العالم اليوم يؤكد هذه الرؤية ، فمَن مَلَك العلم ملَك القوة ، ومَن ملَك القوةَ فَرَضَ إرادتَه ـ وقد تكونَ ظالمةً ـ على العالَمِ ، فالحقُّ عندَ الشاردين عن اللهِ يعني القوةَ ، ليس غير ، والحقُّ عند المؤمنينَ باللهِ هو ما جاء به الوحيُ في تنزيلِه ، وما بيَّنه النبيُّ ﷺ في سنّتِه ، وينبغي أنْ يُدَعَّمَ بالقوةِ ، ودعمُه بالقوةِ أمرٌ تكليفيٌّ وليس تكوينيًّا ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

إن العلمَ الذي يوصلُ إلى معرفةِ اللهِ ، ثم يحملُ على طاعته فرضُ عينٍ على كلِّ إنسانٍ ، كي يسلَمَ ، ويسعَدَ في الدنيا والآخرة ، قال تعالى في كتابه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

بل إنَّ وجودَ الإنسانِ لا معنى له مِن دونِ منهجٍ يسيرُ عليهِ ، ويؤكِّدُ هذا ترتيبُ الآياتِ في مطلعِ سورةِ الرحمنِ ، فتعليمُ القرآنِ جاءَ مقدَّماً على خَلْقِ الإنسانِ ، بترتيبٍ رُتَبِيٍّ ، لا بترتيبٍ زمنيٍّ ، قال تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

[الرحمن : ١ـ٤]

والتعليمُ في نظَرِ الإسلامِ يمتدُّ فيشملُ جميعَ المعارفِ الإنسانيةِ ، وكلَّ ما يقعُ تحتَ إدراكِ الحسِّ والعقلِ ، وما أجملَ وصيةَ الفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه : « علِّموا أولادَكم السباحةَ والرمايةَ ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً »[1] .

فالرمايةُ والتدرُّبُ على ركوبِ الخيلِ كانت عند العربيِّ كلَّ حياتِه في ذلك الوقتِ ، ولو امتدَّ العمرُ بِعُمَرَ رضي الله عنه حتى اليوم لكان له مع هذا القول قولٌ وقولٌ ، ربما يقول : علِّموا أولادَكم الكومبيوتر ، فهو سلاحُ العصر ، والأمِّيُّ اليومَ هو الذي لا يحسنُ استخدامَه فعلموهُم بما يتناسب مع تعاليم ديننا ، ويتفق مع الأخلاق والقيم .

وينبغي أنْ نستعينَ على تربيةِ الطفلِ وتعليمِه بتحقيقِ اهتماماتِه وخصائصِ طفولتِه ، وفي سُنَّةِ النبيِّ ﷺ العمليةِ ما يؤكِّد ذلك ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلاَتَيْ الْعِشَاءِ ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَناً أَوْ حُسَيْناً ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلاَةِ ، فَصَلَّى ، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاَتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا ، قَالَ أَبِي : فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلاَةَ قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللهِ! ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلاَتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ ، قَالَ : كُلُّ ذَلِكَ

(١) هو في الإصابة لابن حجر (١/ ٣٢٥) عن بكر بن عبد الله بن ربيع الأنصاري مرفوعا ، ومِن قول عمر ، من غير قوله : « ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » ، انظر فتح الباري (٦/ ٧٠) ، وتفسير القرطبي (٤/ ٣٦) .

لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ »[١] .

إنَّ التُّحفةَ واللعبةَ تُدخِلان على الطفلِ الفرحةَ والسرورَ ، وتزرعُ على ثَغْرِهِ البسمةَ والسعادةَ ، وقد أصبحت وسيلةً لتنمية المعارف والمدارك ، فمَن دَخَلَ السوق ، واشترى تحفةً ، فحمَلها إلى عيالِه كان كحاملِ صدقةٍ إلى قومٍ محاويجَ[٢] ، وليبدأْ بالإناثِ قَبْلَ الذكور .

هذه هي تعاليمُ الإسلامِ الغراءُ ، ترشدُنا إلى كلِّ ما يسمُو بنا وبأبنائنا نحو مَراقِي الفلاحِ والنجاحِ ، ما أَحْكَمَ هذه النظمَ الأخلاقيةَ الحكيمةَ! ، وما أسمَى مقاصدَها! ، ولاسيما نحو قُرَّةِ أعيننا ، وأعزِّ مَن لنا في الحياةِ ؛ ليخلقَ بذلك روحَ الكمال المنشود ، والخير المقصود ، فالولدُ الصالحُ امتدادٌ لحياةِ أبيه ، وثمرةٌ مِن ثمراتِ مجتمعِه ، وأَمَلُ أُمَّتِه ، يقول الرسولُ عليه الصلاة والسلام : « الْوَلَدُ الصَّالِحُ رَيْحَانَةٌ مِنْ رَيَاحِينِ الجَنَّةِ »[٣] .

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ، وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لاَ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ : للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا »[٤] ، وهو حُبٌّ غريزيٌّ فطريٌّ ، لا يقدِرُ

(١) أخرجه النسائي (٧٢٦) ، وأحمد (٢٧٦٨٨) .
(٢) أيْ : أصحاب حاجة .
(٣) فيض القدير (٤/ ٤٢) .
(٤) البخاري (٥٦٥٣) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

إنسانٌ على دَفْعِه ، أو مَنْعِه ، ولذلك كلَّه وصَّى اللهُ الإنسانَ بوالديه ، ولم يوصِّ الوالدين بأولادهما ، لأنَّ حبَّ الآباءِ للأبناءِ ورعايتَهم طبعٌ ، والطبعُ لا يحتاجُ إلى تكليفٍ ، بينما رعايةُ الأبناءِ لآبائِهم ليس طبعاً ، بل هو تكليفٌ ، قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان : ١٤] .

الإسلامُ والمساواةُ بين الأبناءِ ، ونظرتُه للإناثِ

إنّ الإسلامَ الذي يجعلُ الأطفالَ قُرَّةَ أعينٍ لابد أنْ تؤكِّد شعائرُه وآدابُه هذه النزعةَ الإنسانيةَ ، فالمساواةُ بينهم حتّى في التقبيلِ أمرٌ يحتِّمهُ الإسلامُ ، وتُقرُّه أوامرُه السَّمْحةُ ، فما بالُك في المساواةِ في العطيَّةِ ، فعَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : « انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي ، فَقَالَ : « أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ » ؟ قَالَ : لاَ ، قَالَ : « فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي » ، ثُمَّ قَالَ : « أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً » ؟ « قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَلاَ ، إِذاً »[1] .

أما أنْ يميلَ الرجل كلّ الميلِ إلى طفلٍ بعينِه دونَ إخوتِه ، أو إلى جنسٍ من الأولادِ دون الآخَرِ فذلك ينافي نظرةَ الإسلامِ ، ومبادئَه الصحيحةَ ، ومنطقَ المساواة التي بنيت عليها تعاليمه ، فلا تفرقةَ في الإسلام بين فتًى وفتاةٍ ، ولا بين ولدٍ وبنتٍ ، بل كلاهما في كِفَّتَيْ ميزانٍ ، لا يُرجَّح

(١) البخاري (٢٤٤٦) ، ومسلم (١٦٢٣) ، واللفظ له .

أحدُهما على الأخرى إلا بمقدارِ العلمِ الذي يحصِّلُه ، والعملِ الصالح الذي يقدِّمه ، يقول سبحانه :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

إنّ الخروجَ عن منطقِ المساواةِ والحقِّ والإنصافِ ميلٌ عن الصراط المستقيم ، ولذلك نرى الإسلامَ يأمرُ بالمساواة بين الأولاد ، كما سبق ، حتى لا تتأذَّى مشاعرُ بعضهم ، وعواطفُ بعضهم الآخر ، فيُضطربون السوءَ ، ويحلُّ البغضُ مكانَ الحبِّ ، والخصامُ محلَّ الوئامِ ، فيكون التعقيدُ ، والانحرافُ ، والشذوذُ ، والعُقدُ النفسيَّةُ ، والكَبْتُ ، والعزلةُ القاتلةُ التي تقتلُ الإحساسَ ، وتئدُ المشاعرَ .

وكثيراً ما نهى الرسولُ ﷺ عن تمييزِ الذكورِ ، وتفضيلِهم على الإناثِ دونَ موجبٍ ، بل إنه يرفعُ بذلك من شعورِ الإناثِ ، وإحساسِهنَّ بقيمتهنَّ في الحياةِ ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ » وَضَمَّ أَصَابِعَهُ[١] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ ، فَأَدَّبَهُنَّ ، وَرَحِمَهُنَّ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ »[٢] .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣١) .

(٢) رواه أحمد (١١٩٤٣) ، وأبو داود (٥١٤٧) ، قال المناوي في فيض القدير (١٧٨/٦) : [من عال ثلاث بنات ، أي : قام بما يَحْتَجْنَهُ من نحو نفقةٍ وكسوةٍ وغيرهما ، فأدبهنّ بآدابِ الشريعةِ الإسلاميةِ وعلّمهنّ أمورَ دينهنّ ، وزوّجهنّ مِن كفءٍ عند احتياجهنَ للزواجِ ، وأحسنَ إليهنّ بعد الزواجِ بنحو صلةٍ وزيارةٍ فله الجنةُ ، أي مع السابقين الأولين] .

الإعدادُ المادِيُّ والمعنويُّ

مرَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه ببلدةٍ مِن بلادِ المسلمين في عهدِه ، فوجدَ أنّ الفعالياتِ المعيشيةَ فيها ليستْ بأيدي أبناءِ هذه البلدةِ ، فوبَّخَهُم ، وعنَّفهم ، وقال لهم : « كيفَ بكمْ وقدْ أصبحتُمْ عبيداً عندهُم ؟ » .

لقد أدركَ هذا الخليفةُ الراشدُ ـ ببُعْدِ نظرِه ـ أنَّ المنتجَ هو القويُّ ، وأنّ المستهلكَ هو الضعيفُ ، ويمكن أنْ يُضافَ إلى ذلك أنّ التفوُّقَ العلميَّ سبيلٌ إلى امتلاكِ القوةِ ، وأنَّ صاحبَ الحقِّ لا يستطيعُ أنْ يحميَ حقَّه إنْ كان ضعيفاً ، وما يجرِي في العالَم اليومَ خيرُ شاهدٍ على ذلك ؛ لذلك أَمَرَنا ربُّنا أنْ نعدَّ لأعدائِنا ما نستطيعُ مِن قوةٍ ، فقال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال : ٦٠] ، قوة في العَدد ، وقوة في العُدد ، وقوةٍ في التدريب ، وقوة في التخطيط ، وقوةٍ في الإمداد ، وقوة في التموين ، وقوة في الاتصالاتِ ، وقوة في المعلوماتِ ، وقوة في تحديد الأهداف ، وقوة في دقة الرمي ، وقوة في الإعلام .

إن الله جل في علاه لم يكلفْنا أن نُعِدَّ القوةَ المكافئةَ لأعدائنا ، ولكن كلفنا أن نُعِدَّ القوة المتاحة ، وهذا من رحمة الله بنا ، لأن الله وعد المؤمنين حقاً المطبِّقين لمنهج الله المخلصين له ، وعدهم بالنصر ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[إبراهيم: ٤٧] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٌّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَلاَ تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللهِ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »[1] .

يقول اللهُ عز وجل في كتابه العزيز :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا ﴾ [يونس : ٢٤] .

* * *

حليبُ الأُمِّ

يؤكِّد علماءُ نفسِ الأطفالِ أنَّ الطفلَ حينما يولَدُ لا يملك أيَّةَ قدرةٍ إدراكيةٍ ، بل إنّ كلَّ ما يتمتّعُ به الراشدُ مِن إمكاناتٍ وقدراتٍ ، ومفهومَاتٍ ومعقولاتٍ ، وخبراتٍ ومؤهِّلاتٍ ، هي نتيجةُ تفاعُلِه مع البيئةِ ، وهذا فحوى الآيةِ الكريمةِ :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

لكنَّ مُنعكساً ـ كما في تعبير علماءِ النفسِ ـ يولَدُ مع الطفلِ ، ولا يحتاجُ إلى تعليمٍ ، إنّه منعكسُ المصِّ ، إذ لولاه لَمَا وجدتَ إنساناً

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) .

واحداً على سطحِ الأرضِ في قاراتِها الخمسِ ، إنَّ الطفلَ ساعةَ يولَد لا يستطيعُ أنْ يتلقّى توجيهاتِ والدِه في ضرورةِ الْتِقَامِ ثديِ أمِّه ، وإحكامِ إطباقِهما ، ثم سحْبِ الهواءِ ، كيْ يأتيَه الحليبُ ، لا يستطيعُ أنْ يتلقّى هذه التوجيهاتِ بالفهمِ فضلاً عنِ التطبيقِ .

إنّ حليبَ الأمِّ مِن آياتِ الله الكبرى الدَّالةِ على عظمتِه ، يتغيَّرُ تركيبُه خلالَ الرَّضْعةِ الواحدةِ ، يبدأ حليبُ الأمِّ بماءٍ كثير ، يقلُّ الماءُ ، ويزداد الدسمُ ، إلى أنْ تصبحَ الموادُ الدسمةُ في نهايةِ الرَّضعةِ أربعةَ أمثالٍ ، فهل بالإمكانِ أنْ تغذِّيَ طفلاً بقارورةٍ ، وتتغيَّر نِسَبُ الدَّسمِ ، والموادِ السكريةِ والموادِ البروتينية في أثناءِ الرَّضْعةِ الواحدةِ ؟ .

شيءٌ آخرٌ ، تتغيَّرُ تراكيبُ مقوّماتِ حليب الأمِّ بالكمياتِ المعادِلةِ لنموِّ الصغيرِ ، فكلّما نَمَا الصغيرُ الرضيعُ ازدادتْ الأحماضُ الأمينيّةُ ، والأملاحُ المعدنيةُ ، والمعادنُ النادرةُ ، والفيتامينَاتُ .

أمّا الشيءُ الذي يَلفِتُ النظرَ فهو أنّ هذا الطفلَ الذي خلَقَهُ اللهُ عزَّ وجل قد أَوْدَعَ فيه خمائرَ هاضمةً بمقاديرَ تتناسبُ مع حليبِ الأمِّ ، فلو أرضعنَاهُ حليبَ البقرِ ، ولو كان طازجاً ، أو كان مجفَّفاً لَعَجَزَ الطفلُ عن هضمِهِ ، وتبقَى كميّاتٌ كبيرةٌ مِنَ الموادِّ الدسمةِ والبروتينياتُ والأحماضُ الأمينيةُ دونَ هَضْمٍ ، وطَرْحُ هذه الموادِّ عن طريقِ الكُلْيَةِ يُجْهِدُها ، لذلك نَجِدُ الطفلَ الذي يَرضعُ حليبَ البقرِ تجْهَدُ كُليتاه في طرحِ الموادِّ الدسمةِ ، والأحماضِ الأمينيةِ ، والبروتيناتِ التي لم يستطعْ هضْمَها ، فخمائرُ الهضمِ عنده متوافقةٌ معَ حليبِ الأمِّ ، وليستْ متوافقةً مع حليبِ البقرِ ، لأنّ في حليبِ البقرِ أربعةَ أمثالِ ما في حليبِ الأمِّ مِن الأحماضِ الأمينيةِ .

قال العلماءُ : إنّ ارتفاعَ نسبةِ الأحماضِ الأمينيةِ في الدّمِ تُسَبِّبُ للطفلِ الرضيعِ القصورَ العقليَّ ، والآفاتِ القلبيةَ ، والآفاتِ الوعائيةَ ، وأمراضَ جهازِ الهضمِ والكبدِ ، والأمراضَ المزمنةَ التي تلازمُ الإنسانَ طوالَ حياتِه ، ولو سألتَ أطباءَ الأورامِ الخبيثةِ لأجابوك بقولهم : إنَّ المرأةَ التي تُرْضِع ابنَها مِن ثديها أقلُّ عُرْضةٌ للإصابة بوَرَمِ الثديِ مِنَ المرأةِ التي لا تُرْضِع ابنَها مِن ثديها ، أي : إنَّ نسبَ أورامِ الثديِ الخبيثةِ في النساءِ اللواتي يُرضِعن أولادَهنَّ قليلةٌ جداً ، أمّا نِسَبُ الأورامِ الخبيثةِ في النساءِ اللواتي لا يُرضعْنَ أولادَهن فهي نِسَبٌ عاليةٌ .

إنَّ العطفَ والحنانَ الذي يتلقّاه الطفلُ مِن أمّه في أثناءِ الرضاعةِ يُكْسِبُه رحمةً في قلبِه تنعكسُ على علاقاتِه بمَنْ حولَه في مستقبلِ أيامِه ، قال تعالى :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وصيغة : ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ جاءتْ خبراً في معرضِ الأمرِ ، أي : أيَّتُها الوالداتُ أرضِعْنَ أولادكُنَّ ، وكلُّ أمرٍ في القرآنِ يقتضِي الوجوبَ ، ما لم تكن هناك قرينةٌ تنصُّ على خلافِ ذلك .

وقد ألزمتْ حكوماتُ أكثرِ الدولِ معاملَ حليبِ الأطفالِ أنْ تكتبَ على كلِّ عبوةٍ : لاشيءَ يعدِلُ حليبَ الأم .

ثمَّة بحثٌ علميٌّ تمَّ في بلدٍ متقدِّمٍ ، قاسَ مستوَى الذكاءِ الفطريّ لدَى عددٍ مِنَ الأطفال ، مِن شعوبٍ متعددةٍ ، بالنسبةِ للإرضاعِ الطبيعيِّ والصناعيِّ ، فكانت النتائجُ مدهِشةً : أطفالُ جُزُرِ الباسيفيك يتمتَّعون

بأعلى نِسَبِ الذكاءِ مِن بينِ مجموعةِ الأطفال الذين تناولَهم البحثُ ، وذلك بسببِ أنّهم لا يعرفون الإرضاعَ الصناعيَّ أبداً ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ .

هذا منهج الله عزَّ وجل ، إنه تعليمات الصانع ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ـ١٠] .

وقد أحسن الشاعرُ حين قال :

تَـدَارَكْتَنَا بِاللُّطْفِ فِي ظُلْمَةِ الْحَشَا ... وَخَيْرَ كَفِيلٍ فِي الْحَشَا قَدْ كَفَلْتَنَا
وَأَسْكَنْتَ قَـلْبَ الأُمَّهَاتِ تَعَطُّـفاً ... عَلَيْنَا وَ فِي الثَّدْيَيْنِ أَجْرَيْتَ قُوتَنَا
وَأَنْشَأْتَنَا طِفْلاً ، وَ أَطْلَقْتَ أَلْسُـناً ... تُتَـرْجِـمُ بِـالإِقْـرارِ أَنَّـكَ رَبُّـنَـا
وَ عرَّفْتَنَا إِيَّاكَ ، فَالْحَمْدُ دَائِـماً ... لِوَجْهِكَ إِذْ أَلْهَمْتَنَا مِنْكَ رُشْـدَنَا

* * *